ذكريـات لاتمـوت
مـع الشيـخ عبـد الله مـــديحـلي

الشيخ د. جعفـر المهاجـر

سنة ألف وتسعمائة واثنتين وخمسين دخل " النجف الأشرف " ، قادماً إليه من مختلف أنحاء " لبنان " في طلب العلم تسعةأشخاص دفعةً واحـدة ً . قيـل يومذاك إن هذه السنة مباركة ، سنة خير وإقبال ، لأنه لم يحصل أن قدم " النجف " مثل هذا العدد في سنة واحدة . وكان من أثـر هذا الإقبال أن زاد عدد العامليين (وكل اللبنانيين هناك يُسمّـون عامليين) حتى بلغ الخمسين طالباً أو كـاد . كان هذا ، فيمـا يذكره الذاكرون ، عدداً غير مسبوق .

كان من جُملة القادمين الشيخ عبد الحميد الحرّ ، قاضـي " بيروت " ثم المستشار بمحكمة الإستئناف حتى وفاته ، والشيخ عبد الأمير قبلان ، المفتي الجعفري الممتاز ونائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى ، والسيد أحمد شوقي الأمين ، المستشار بمحكمة الاستئناف الجعفريّـة ، امـدّ الله بعمرهما ، وكاتب هذه المقالة . كمـا كان منهم رجل يدرج إلى الكهولة ، يعتمر كوفيّـة وعقالاً ، يبدو عليه سيمـاء الصالحين ، يصطحب فتىً في مقتبل الصبا . أمـا الرجل فقد كان المرحوم الشيخ حسين مديحلي ، وأمـا الفتى فقد كان ابنه عبد الله .

كنتُ والشيخ عبد الله من نفس العمر تقريباً . هو في التاسعة وأنا في العاشرة . ومجتمع " النجف " يومذاك مجتمع صارم ، يضع حدوداً لكل شئ . مـن ذلك طاقـة التواصل بين الناس . كان (العامليّون) مجتمعاً صغيراً داخل المجتمع الأكبر . وعلى كل حال فإنهم لم يكونوا استثناءً في هذا . فمثلهم الإيرانيون والأفغانيون ٠٠٠٠٠ الخ . بحيث أن دورة الحياة ، بما فيه تلقّـي الدروس والتذاكر والبحث واللقاءات الـمُعدّ لها سلفاً في مجالس معلومة ، ومن ذلك مجالس التعزية التي تتحوّل عادةً إلى مجلس مذاكرة عام يُصـدر صخباً يُسمع من مسافة بعيدة ـ ، كل ذلك يجري في دوائر مغلقَـة ، يرسم حدودها الأصل والمنبت .

لكـن مشكلتنا أنا والشيخ عبد الله كانت من نوع خاص . فنحن الأصغر سنّـا بين (العامليين) . كنّـا (زعاطيط) ، يعني أطفالاً في الدّارجة العراقيّـة . والزعاطيط لا محلّ لهم في مجتمع الكبار . ومن ذلك أن عليهم دائماً أن يسمعوا ، فقط يسمعوا ، وليس لهم بالتأكيد أن يقولوا . كما أنه لاحقّ لهم بالمشاركة في المذاكرات الصاخبة ، التي تُعتبر من مقاييس تحصيل الطالب وتمنحه موقعاً في مجتمع الطلبة . ومن ذا الذي يتذاكر مع زعطوط .

لم يطُـل بنا الأمر حتى وجدنا الحـلّ ، بأن شكّلنا (مجتمعنا) الخاص المؤلّـف منه ومني . كان هو يدرس على أبيه وأنا على صهر العائلة السيد عبد الكريم نور الدين ، المستشار السابق أيضاً بمحكمة الاستئناف الجعفريّـة . وعندما نفرع من

درسنا ومطالعتنا كنا نلتقي ، إمّـا في برّاني المرحوم إبن خالنا الشيخ جعفر الصائغ ، حيث كان ينزل الشيخ حسين مديحلي وولده ، وإمّـا في منزل السيد نور الدين ، حيث أُقيم . هكذا قامت بيني وبين الشيخ عبد الله علاقة شبه يوميّـة . ظلّت روحها حيّـة دائماً ، حتى بعد أن كبرنا ، وانفصلت دروبنا ، وساقت كلاً منا في طريق .

سنة ١٩٥٦ ظهرت في المجتمع الدراسي النجفي نابتة جديدة غير مألوفة ، رمـت إلى تقريب نمط الدراسة النجفي التقليدي من المنحى الأكاديمي . قادها أُستاذنا المرحوم الشيخ محمد رضا المظفر ، يعاونه أُستاذنا أيضاً السيد محمد تقي الحكيم ، أمـدّ الله تعالى في عمره . تلك هي (كليّـة الفقـه) . التي كات لتأسيسها وقع عنيف على غُلاة المتمسكين بنموذج الدراسة الحوزويّـة التقليديّـة .

كنتُ والشيخ عبد الحميد والسيد أحمد والشيخ عبد الله والشيخ محمود كوثراني والشيخ أحمد قصير أول مَـن انتسب من (العامليين) إلى الكليّـة الجديدة . وثارت في وجهنا عاصفة لم نكن نتوقّـع إطلاقاً أن تكون بذلك العنف . قادها المرحوم الشيخ محمد تقي الفقيه . الذي قال إنه يرى في (كليّـةالفقه) خطراً على " النجف " وعلى تقاليدها الدراسيّـة . كمـا يرى في انتسابنا نحن بالذات خطراً على تحصيلنا العلمي . وربما كانت هناك اعتبارات أُخـرى . وصمدنا نحن متضامنين . وكان ذلك لخير رفع مستوى العلاقة بيننا . وصرنا كتلة على شئ من الاستقلال . لنا مواقفنا ومجلسنا الخاص ولقاءاتنا . ومع الأيام بدأت حدّة الحملـة تخفت شيئاً فشيئاً . واكتشـف النابهون من زملائنا أن (كليّـة الفقـه) ليست الوحش المخيف الذي وُصف لهم وأرعبهم . وعادت العلاقات بيننا وبين بقيّـة زملائنا إلى صفوها القديم . ومع ذلك فإن العلاقة الخاصـة الحميمة التي قامت بيننا ظلّت قائمة لم تنفصم .

بعد التخرّج من الكليّـة بدأنا نعود تباعاً كلٌ إلى بلده . لكن العلاقة الحميمة التي غذتها عشر سنوات من المودّة التي لاتنقطع ظلّت قائمة . وخلال زهاء الثلاث عشرة سنة كانت زيارة " المنصوري " بانتظام طقساً شهرياً لاغنى لنـاعنه جميعاً . وخلال زياراتنا المتكرّرة بدأتُ شخصياً أُلاحظ نموّ العلاقة الدافئة بين الشيخ عبد الله وأهل بلده . بحيث أننا نحن زملاؤه أخذنا نضرب بها المثل . لأنها عندنا من أوضح إمارات نجاح إمام البلدة في أداء واجبه . كما بدأنا نشهد بروز الشيخ في المحافل بوصفه خطيباً ومُحدّثاً ممتازاً . ولطالما لبّى دعواتي إلى المشاركة في مناسبات خطابية في " بعلبك " . حيث كان دائماً يُلفت نظر المستمعين إلى بيانه الممتاز .

خلال الحرب الأهليّـة انقطعت دروبنا تماماً ، ولم نعد نلتقي . كان آخر لقاء تمّ بيننا من صنع الصدفة أو التوفيق . وذلك على مدخل أحد المستشفيات في " بيروت " . حيث قرأت على المحيا الحبيب الآثار القاسية للمرض . طبعاً لم أسأل لكن ما رأيته كان كافياً لإفهامي قسوة الأزمة الصحية التي يُعاني منها . ولم تتح لي ظروف الحرب أن أتسقّط أخباره فيما بعد . ثم عرفتُ بعد مدّة غير قصيرة أنه توفي إلى رحمة الله تعالى .

رحم الله أخي الشيخ عبد الله ، وجمعنا في دار كرامته .